طاغور في مصر (١)

في الحفلة الكبيرة التي أقيمت بتياترو حديقة الازبكية مساء ٢٩ نوفمبر ١٩٢٧ احتفاء بالشاعر الهندي العالمي طاغور ، رحب به أحمد لطفي السيد باشا مدير الجامعة المصرية ترحيباً ختمه بقوله «لا عجب ان نكرم طاغور لأنه جرى في حياته على سنن أفلاطون ووروع عمر بن الخطاب وهدي تولستوي» . ثم وقف طاغور وشكر للامة المصرية حفاوتها ثم استأذن في الجلوس لأنه « ليس محاضراً بالمرانة ولا الصناعة وجل ما يستطيعه ان يناجي نفسه والوقوف ينضب النهر ويقطع نجواها »

ثم قال : انه ليس فيلسوفاً بالمعنى المتعارف وليست الفلسفة سوى ناحية يسيرة من نواحي حياته وان له شيئاً من الفلسفة في اشعاره لا ينزل بها الى مستوى المذاهب الفلسفية التي تفقدها صفتها الغنائية . ولكنه كأحد الهنود له فلسفة قومه وهي فلسفة الشاعر اذ عندها تلتقي الفلسفة بالشعر . ثم قال ان فلسفة قومه ليست فلسفة تشاؤم كما يظن الغربيون بانين حكمهم على انهم — أي الهنود — لا يقبلون حقائق الكون المعروفة كأنها ثابتة او نهائية . فاذا صدقنا قول الغربيين قلنا ان جنين الفرح في البيضة متشائم لان فطرته تدفعه الى التحرك بمائه الذي يعرفه فيشق القشرة حتى يطل منها على عالم لا يعرفه . ان الهنود يؤمنون بشيء ثابت لا نهاية له ولا حد ، سموه اذا شئت الوحدة الروحية ، وهي سر الوجود وفيها يبغون ان يجدوا حريتهم المطلقة وحقيقتهم الخالدة

يقول الغربيون اننا متصوفون وعلى ثغورهم بسمة ازدراء ، على ان أغنية من أغانينا القومية التي ينشدها الفلاح في حقله والصياد في قاربه تحدد غاية هذه الفلسفة الصوفية . انهم ينشدون « ماذا جنيت حتى حكم علي بأن أسكن في سجن

(١) نشرنا في مقتطف نوفمبر الماضي فصلا عن طاغور وأدبه ومنزلته في نفس كاتب انكليزي بليغ وسنبدأ في الشهر القادم في نشر دراسة مستفيضة في أدب طاغور وشعره لكاتب مصري مجيد

الحقائق » . ويراد بالحقائق الامور التي يُشغل البحث وتتغير من عصر الى عصر بتغيُّر الباحثين وأساليب التفكير ، أي أنهم يريدون الانطلاق من قيود الحقائق ليطلبوا الحقَّ الأزليَّ ، فغاية فلسفتنا البحث عن هذه الحرية في سرّ الكون المطلق ، في الحقيقة الأزلية

***

والغاية من الفنون والآداب اظهار هذه الحقيقة وابرازها . أنظر صورة عجوز دميمة فتُعجَب بها لا لأن العجوز تستحق الاعجاب ولكن لأن جمال الصور يقوم في ان الصور عرف كيف يصوِّر العجوز على حقيقتها فحرّك هذه الحقيقة في نفوسنا معاني الاعجاب . فالجمال اذاً في الحقيقة . والصور عليها يجعلنا أحراراً (جاء في الانجيل وتعرفون الحق والحق يحرركم) . وشخصية الانسان هي الحقيقة الأولى التي يجب ان نعرفها . والحب يظهرها لنا في أجلى مظاهرها . لذلك نسعد بالحب . قد لا يكون من نحبُّ جميلاً او صالحاً ، ولكن حقيقته ثابتة لنا فلا نستطيع ان نصرف نظرنا عنه ، وهذه هي الحرية الصحيحة ، الحرية التي تقوم على معرفة حقيقة ثابتة كحقيقة وجودنا . ولذلك يحب الوالد ابنه لأنه يرى فيه صورة من نفسه ، يرى فيه ذاته وقد اتسعت واتخذت شكلاً جديداً . ولذلك نجد أنفسنا أحراراً في جماعة الاصحاب والاحباب وغير أحرار بل مقيدين بأنواع القيود حينما نكون في جماعة من الاغراب

وعمل الآداب والفنون هو جلاء هذه الحقيقة في كل ما يحيط بنا ، فنال بجلائها حريتنا

***

وكما ان في جنين الفرخ داخل البيضة فطرة مبهمة تدفعه الى اكتناه العالم الذي يحيط بقشرته ، كذلك في النفس البشرية ، قوة مبهمة تدفعها الى تفهم الاسرار المحيطة بالامور التي يحاولها البحث يوماً فيوماً ، الى طلب الحقيقة

الازلية التي تجد فيها حريتها الطليقة . ولذلك ترى الهنود يشعرون ان الله حقيقة لانه يمثل النزعات العليا والاسرار التي تختلج في النفس

***

واحتفل به كذلك في فندق شبرد احتفالاً خطب فيه وزير المعارف وألقى طاغور فيه الخطبة التالية

اذكر اني لما سافرت الى الصين احتفل بي اهلها . ومما سرني ان اوضاع الحفلة قضت بأن يلبسوني ملابس سفراء الصين وان يقيموا عيد ميلادي وان يقيدوني شاعراً صينيًّا ذلك بأني وان كان مولدي بالهند ولغتي غير لغة الصينيين فقد سبقتني كتبي وسبقني شعري اليهم . وأشعر الآن بينكم وقد قرأ كثير منكم كتبي مترجمة اني استطيع ان اعتبر نفسي شاعراً مصريًّا ايضاً . وقد وفقت في سياحاتي اكثر مما وفق غيري فزرت طائفة من الممالك في الشرق والغرب لم تتم لكثيرين غيري زيارتها . وفي هذه الممالك جميعاً وجدت في آثار كتبي وشعري ما سرني . فهذه الآثار خير ما يكافأ به شاعر

وقد أشار صديقي بأن أكون واسطة تفاهم بين مدنية الهند ومدنية مصر واني قابل هذه الوساطة لنشر فكرة اعتقدها سبيل السلام . فقد اسرفت الامم في الاثرة والانانية وفي العصبية الجنسية التي يتمسك بها فريق كبير من اهل الامم المتحضرة على ان هذه العصبية أكبر مظاهر ضعف المدنية الحاضرة فهي التي تجر الامم الى التطاحن لنيل غايتها وهي التي تثير بينها حروباً مهلكة ما كانت لتقع لولا هذا التعصب وتلك الاثرة . وما اشك مطلقاً في انهُ قد وجدت امم من قبل وبادت . أفنتها الحروب في سبيل اغراضها . وما تزال الآن في مجاهل افريقيا امم تسير في طريق الفناء لاخذها في حمأتها بهذه الخطة . ولئن كان هذا ممكناً تصوره يوم كانت الحدود الجغرافية حقيقة واقعة تفصل بين الامم وتجعل كل امة تعتز بكيانها وبجنسها وتجعل من لون اصحابها وسيلة لحرب من كانوا من لون آخر فلم يبق لهذا التصور اليوم محل بعد ان أمسحت الحدود الطبيعية لا حقيقة لها لاسباب

أهمها تقدم المواصلات والتمازج العقلي بين الامم . لذلك يجب ان تزول الاثرة وان يزول التعصب للجنس والتعصب للون ويجب ان يشعر العالم ان هناك وحدة روحية تربط امم المختلفة . ومن حسن الحظ اني رأيت في اثناء سياحاتي في البلدان المختلفة كثيرين من كبار المفكرين متفقين واياي في الرأي واثقين كما اثق بان مياتي اليوم الذي تسود فيه هذه الفكرة الشعوب جميعاً . بل لم يقف الاقتناع عند المفكرين الكبار ، فقد احتفل بي في بلاد متعددة كثير من البسطاء لانهم حسوا في كتاباتي الدعوة الى هذه الوحدة الروحية التي تصبو اليها نفوسهم والوسيلة لقهر الانانية وزوال التعصب الجنسي ليست هي الحديد والنار وانما هي انتشار الافكار السامية بين الشعوب وسعيها جميعاً الى إدراك الحقيقة . فهذه الحقيقة ، الحقيقة المجردة ، الحقيقة المطلقة يجب ان تكون غاية الغايات لكل شاعر ولكل مفكر ولكل فيلسوف وغاية الغايات للانسان الكامل . ويوم يأتي الوقت الذي يصل فيه كل لمعرفة الحقيقة فاذا رأها لم يتردد في اعلانها يومئذ يكون الانسان قد وصل الى الكمال . وفي هذا اليوم يتم السلام على الأرض . امم فالسلام لن يترتب على عمل صناعي مطلقاً كالاتفاقات الدولية وما اليها . انما الوسيلة الوحيدة لتحقيقه هي الوحدة الروحية وأحس ان هذه الوحدة بدأ في العالم ظهورها

وختاماً لهذا الحديث أرتل كلمة غالية من أحد كتبنا المقدسة

***

وهنا أطرق ورتّل حكمة بصوت عذب جدًّا يصل الى القلب بلغته الاصلية ثم نقل الابيات الى الانكليزية ومعناها على التقريب

« رب الارباب واله البشر جميعاً تنزهت عن كل لون وجنس

« يا مهيمناً على جميع الامم وان اختلفت ألوانها

« وحّد بين قلوبها والهمها تبادل المحبة

« وايدها بروح الحق والعدل »